جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا
المجـــلة العلميـــة

أسلوب التعجيب القرآني
بصيغة " أَلَمْ تَرَ "

إعداد

د/ أحمد عبد الحميد محمد العوني

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

(العدد العشرون ٢٠٢٣م)

أسلوب التعجيب القرآني بصيغة " أَلَـمْ تَـرَ "

أحمد عبد الحميد محمد أحمد
قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بقنا، جامعة الأزهر، قنا، مصر.
البريد الإلكتروني: ahmedabelhamed.4119@azhar.edu.eg

ملخص البحث :
البحث دراسة لبيان نوع مهم من الأساليب القرآنية التي جاء بها القرآن الكريم وهو أسلوب التعجيب، إظهارًا لإعجاز القرآن في كونه آتيًا بنفس لغة العرب وبنفس أساليبهم في الكلام مع بلوغه الدرجة العليا في الإعجاز.
وقد اقتضت طبيعة البحث استخدام المنهج الاستقرائي القائم على الآيات القرآنية الوارد فيها صيغة "ألم ترَ "ثم بيان حكمة التعجيب في الآية الكريمة.
وتوصل البحث إلى أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب وأساليبهم في الكلام لكن مع بلوغه الدرجة العليا في البلاغة والفصاحة والإعجاز، فأسلوب الاستفهام والنفي في القرآن الكريم كان أسلوبًا تعجيبيًا وليس تعجبيًّا، ذلك أن التعجب يستلزم عدم علم المتعجب، بخلاف التعجيب الذي يترتب عليه علم المعجِّب بالأمر.
ويوصي الباحث بوجوب عناية الدارسين والمشتغلين بعلوم القرآن الكريم بإظهار وجوه إعجاز القرآن الكريم وتنوع أساليبه.
وقد كان من أسباب اختيار الموضوع: خدمة كتاب الله -ﷻ- بإظهار وجه من أوجه بلاغة القرآن، وبيان أسلوب التعجيب القرآني الذي اشتمل على الاستفهام المسند لله -ﷻ- في القرآن الكريم، حتى نظهر الفرق بين أسلوب التعجب وأسلوب التعجيب.
وقسمتُ البحث إلى: مقدمة: ذكرتُ فيها أسباب اختياري لموضوع البحث ومنهجي فيه، وأقسام البحث، وتمهيد: ذكرت فيه: معنى التعجب في اللغة والفرق بينه وبين التعجيب.

معنى الاستفهام التعجيبي الوارد في القرآن الكريم، حكمة إيثار التعبير بلفظ "تَـرَ "دون "تنظر"،

ومعنى صيغة "ألم ترَ "الواردة في القرآن الكريم، وخمسة مباحث: جاءت كالتالي:

المبحث الأول: التعجيب من حال الأمم الماضية، المبحث الثاني: التعجيب من حال المؤمنين

المبحث الثالث: التعجيب من حال الكافرين، المبحث الرابع: التعجيب من حال أهل الكتاب.

المبحث الخامس: التعجيب من حال المنافقين، وخاتمة: ذكرتُ فيها أهم نتائج هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: التعجيب، ألم تر، حكمة التعجيب، الأساليب القرآنية، إعجاز القرآن.

The Qur'anic wonder style in the form of "Alm tra ...." "Do not you see.."

Ahmed Abdel Hamid Mohamed Ahmed
Department of Interpretation and Quranic Sciences, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys, Qena, Al-Azhar University, Qena, Egypt.
Email: ahmedabelhamed.4119@azhar.edu.eg

Abstract:

The research is a study to demonstrate an important type of Quranic methods that the Holy Qur'an came with, which is the method of wonder, to show the miracle of the Qur'an in that it comes in the same language as the Arabs and the same methods of speaking with it reaching the highest degree in that.

The nature of the research necessitated the use of the inductive approach based on the Quranic verses containing the formula "Alm tra ..." "Do you not see.." and then explaining the wisdom of wonder in the noble verse.

The research concluded that the Holy Qur'an was revealed in the language of the Arabs and their methods of speaking, but with the attainment of the highest degree in eloquence and rhetoric.

The researcher recommends that scholars and practitioners of the sciences of the Holy Qur'an should pay attention to showing the aspects of the miracles of the Holy Qur'an and the diversity of its methods.

One of the reasons for choosing the topic was: serving the Book of God by showing one of the aspects of the eloquence of the Qur'an, and explaining the method of Qur'anic wonder, which included the interrogative question attributed

to God in the Holy Qur'an, so that we can show the difference between the method of exclamation and the method of wonder.

I divided the research into: an introduction: in which I mentioned the reasons for choosing the research topic and my methodology in it, the research sections, and a preface: in which I mentioned: the meaning of exclamation in the language and the difference between it and wonder.

The meaning of the exclamatory question mentioned in the Holy Qur'an, the wisdom of preferring to express it with the word "see " Tra"" rather than "look " " Tanzor",

The meaning of the formula "Did you not see " mentioned in the Holy Qur'an, and five topics: They are as follows:

The first topic: wondering of the condition of past nations. The second topic: astonishment at the condition of believers

The third topic: wondering of the condition of the unbelievers. The fourth topic: The wondering of the condition of the People of the Book.

The fifth section: wondering of the state of hypocrites, and a conclusion: in which I mentioned the most important results of this research.

Keywords**: Wonder , " Alm tra .." "Do not you see…" , The wisdom of wonder, Quranic methods, Miracles of the Quran.**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي يعلم السر وأخفى .

عجَّبَ خلقه من أفعالهم وهو العالِم بما تخفيه صدورهم وما تُكنُّه قلوبهم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن من بلاغة القرآن وإعجازه أنه جاء بما عهدته العرب من أساليب الكلام مع ما فيه من علو الرتبة عن أن تصل إليه ألسنتهم.

فجاء القرآن الكريم معجزاً لهم في نظمه وفصاحته وبلاغته، وقد كان من إعجاز القرآن لهم أن جاء بنفس لغتهم حتى يقيم عليهم الحجة (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١)

كما كان من تمام هذا الإعجاز القرآني أن يأتي القرآن بما يشبه أساليبهم في كلامهم مع بلوغه درجة لا يطمحون في الوصول إليها، فلو كان القرآن بلغتهم مع مخالفته لأسلوبهم في كلامهم فلربما حُق لهم أن يتحججوا بذلك في عجزهم عن الإتيان بمثله، فلما جاء بلغتهم وبنفس أسلوبهم مع عجزهم عن الإتيان بمثله قامت عليهم حجة العجز ووجب عليهم التسليم له بأنه كتابٌ معجزٌ من لدن حكيمٍ حميد.

وقد كان من هذه البلاغة القرآنية أن نجد فيه أسلوب التعجيب الرباني الذي لا ينفصل عن علم الله العليم الخبير، فجاء أسلوب التعجيب في القرآن لإثارة فضول

(١) إبراهيم ٤

المخاطبين وتحفيزهم على التعجب من الأمور التي ذكرها القرآنُ منفراً من أصـحابهما، أو محفزاً للمخاطبين بها على طاعته.

وقد وفقني الله -ﷻ- لاختيار هذا البحث وجعلت عنوانه:

(أسلوب التعجيب القرآني بصيغة "أَلَمْ تَرَ")

أسباب اختيار الموضوع:

والذي دفعني لاختيار هذا البحث:

١ــ خدمة كتاب الله -ﷻ- بإظهار وجه من أوجه بلاغة القرآن.

٢ــ بيان أسلوب التعجيب القرآني الذي اشتمل على الاستفهام المسند لله -ﷻ- في القرآن الكريم، حتى نظهر الفرق بين أسلوب التعجب وأسلوب التعجيب.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي القائم على تتبع الآيات القرآنية الوارد فيها صيغة "ألم ترَ "واختيار نماذج من هذه الآيات ثم بيان حكمة التعجيب في الآية الكريمة.

أقسام البحث:

قسمتُ هذا البحث إلى:

- **مقدمة:** ذكرتُ فيها أسباب اختياري لموضوع البحث ومنهجي فيه، وأقسام البحث.
- **تمهيد:** ذكرت فيه:
  - معنى التعجب في اللغة والفرق بينه وبين التعجيب.
  - معنى الاستفهام التعجيبي الوارد في القرآن الكريم.
  - حكمة إيثار التعبير بلفظ "ترَ "دون "تنظر ".
  - معنى صيغة "ألم ترَ "الواردة في القرآن الكريم.

* **خمسة مباحث**: **جاءت كالتالي**:

المبحث الأول: التعجيب من حال الأمم الماضية

المبحث الثاني: التعجيب من حال المؤمنين

المبحث الثالث: التعجيب من حال الكافرين.

المبحث الرابع: التعجيب من حال أهل الكتاب.

المبحث الخامس: التعجيب من حال المنافقين.

- **خاتمة**: ذكرتُ فيها أهم نتائج هذا البحث.

التمهيد

سوف أذكر – بعون الله ﷻ – في هذا التمهيد: معنى لفظ العَجَبِ في اللغة والفرق بين التعجب والتعجيب، ثم بيان معنى الاستفهام التعجيبي الوارد في القرآن الكريم، وحكمة إيثار التعبير بالرؤية دون النظر والفرق بين الرؤية والنظر، ثم ذِكْر معنى صيغة ألم تر الواردة في القرآن الكريم، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: معنى العَجَب، والفرق بين التعجب والتعجيب .

الأمر العجيب هو: الأمر يُتَعَجَّبُ منه، وكذلك العُجابُ بالضم، والعُجَّابُ بالتشديد هو الذي جاوز حدّ العَجَب، مثل الطويل والطُّوال، والاستعجاب: شدّة التعجب، وهو مُسْتَعْجِبٌ ومُتَعَجِّبُ ممّا يرى، ولا يجمع عَجَبٌ ولا عجيبٌ، ويقال جمع عجيبٍ عجائب، وأعاجيب، وعجبتُ من كذا وتعجَّبتُ منه واستعجبتُ بمعنًى، وعجَّبتُ غيري تعجيباً، وأعجبني هذا الشيء لحُسْنِهِ، وقد أعجبَ فلانٌ بنفسه، فهو مُعْجَبٌ برأيه وبنفسه، والاسم العُجْبُ بالضم، وهو مُسْتَعْجِبٌ ومُتَعَجِّبُ ممّا يرى. (١)

ثانياً: معنى الاستفهام التعجيبي الوارد في القرآن.

هذا التركيب البلاغي "أَلَمْ تَرَ" مكون من الاستفهام والنفي.

والاستفهام هنا استفهام مجازي وليس على الحقيقة.

فإذا جاء الاستفهام مسنداً لله –ﷻ – فهو من المجاز، ذلك أن الاستفهام في أصله يستلزم جهل المستفهِم بما يستفهم عنه، وهذا محال قطعاً على الله ﷻ.

لكن هذا النوع من الاستفهام كان من قبيل بلاغة القرآن الذي جاء بما عهده القوم من أساليب البلاغة والفصاحة عندهم، ومن هذه الأساليب: الاستفهام لا لغرض معرفة

---

(١) الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري مادة عجب جـ ١ ص ١٧٧ط دار العلم للملايين، كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي مادة عجب جـ ٣ ص ٨٩ ط دار الكتب العلمية بيروت .

شيءٍ مجهولٍ وإنما لأغراض أخرى، كالتقرير والتوبيخ وغيرها من أساليبهم المعروفة عندهم، كما ذكر السيوطي – رحمه الله – من أنه قد توسعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ أو أشربته تلك المعاني. (١) أ.هـ

وقد أفاض العلماء في بيان حقيقة هذا الاستفهام المسند لله – ﷻ– فيقول الراغب – رحمه الله –: إن قيل: كيف يصح أن يقال السؤال يكون للمعرفة، ومعلوم أن الله تعالى يسأل عباده نحو "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ "(٢)؟ قيل: إن ذلك سؤال لتعريف القوم وتبكيتهم لا لتعريف الله تعالى فإنه علام الغيوب (٣) أ.هـ

ويقول الزجاج – رحمه الله – في قول الله – ﷻ – "فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ "(٤) فَلَا يُسأل عن ذنْبه ليستفهم، قد علم اللَّه – ﷻ– ما سَلَفَ مِنْهُمْ.

وَأَما قوله "وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ "(٥) فيُسألون سؤال توبيخ لا سؤال اسْتِفْهَام كما قال "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ "(٦) وإنما تسأل لتوبيخ مَنْ قَتَلَهَا. (٧)

ويقول الزركشي – رحمه الله –: إن الرب تعالى لا يستفهم خلقَه عن شيء وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء فهذا أسلوب بديع انفرد به خطاب القرآن وهو في كلام البشر مختلف ٠

---

(١) ينظر: الإتقان للسيوطي الباب السابع والخمسون: الخبر والإنشاء جـ ٢ ص ١٧١ وما بعدها، ط دار الكتب العلمية .

(٢) المائدة ١١٦ .

(٣) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة "سأل" ص ٢٢٤ ط دار الفكر.

(٤) الرحمن ٣٩ .

(٥) الصافات ٢٤.

(٦) التكوير ٨، ٩.

(٧) ينظر: معاني القرآن للزجاج جـ ٤ ص ٢٣ .

وقد يخرج الاستفهام عن حقيقته بان يقع ممن يعلم ويستغني عن طلب الإفهام عليه. (١) انتهى بتصرف.

والاستفهام المستعمل في التعجُّب أو التعجيب يُسَمَّى اسْتِفْهَاماً تَعْجُبِيّاً حين يَكونُ صَادِراً مِنْ متعجِّبٍ فعلاً، ويُسَمَّى اسْتِفْهَاماً تَعْجِيبِيّاً حينَ يكونُ الغرض من إيراده إثارَةَ الْعَجَب عنْد مَنْ يخاطَبُ بهِ أو يتلقَّاهُ، منه ما يكون صادراً عن الله – ﷻ– إذْ ليْسَ من صفاتِهِ سبحانه أن يتعجَّب تَعَجُّبَ استِغْرابٍ واستبعاد، نظراً إلى سابقِ علمه تعالى بكلّ ما يحدُثُ منْ عباده قبْلَ حدوثه، وعِلْمِهِ بخلْقِه وَصفاتِهِمْ وخصائصهم النّفسية والسلوكيّة.(٢)

فيكون معنى التعجيب: هو إثارة العَجَب عند السامع وحمله على التعجب مما يُخاطب به من أخبار.

ثالثاً: حكمة إيثار التعجيب بلفظ "تَـرَ" دون "تنظر "والفرق بين الرؤية والنظر والبصر .

عبَّر القرآن في هذا الأسلوب التعجيبي بالرؤية دون النظر أو البصر لحكمةٍ تظهر ببيان الفرق بينهم في الدلالة.

فقد جاء في الفرق بين النظر والرؤية:

أن النظر طلب الهدى، والشاهد قولهم نظرتُ فلم أر شيئاً، والناظرُ الطالبُ لظهور الشيء بإدراكه من جهة حاسة بصره أو غيرها من حواسه، والنظر تقليب العين حيال مكان المرئي طلباً لرؤيته، والرؤية هي إدراك المرئي (٣) انتهى بتصرف .

---

(١) ينظر: البرهان للزركشي النوع الخامس والأربعون: في أقسام الكلام جـ ٢ ص ٣٢٧ ، الإتقان للسيوطي الباب السابع والخمسون: الخبر والإنشاء جـ ٢ ص ١٧١ وما بعدها

(٢) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن حسن حَبَنَّكَة الميداني جـ ١ ص ٢٧٨ ط دار القلم – دمشق

(٣) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٧٥ ط دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع

إذن فالنظر هو استعمال العين لإدراك المنظور إليه، وقد تحدث رؤيته وقد لا تحدث، فإذا حدثت فهي رؤية.

فالتعبير بالرؤية هي الأنسب لمقام التعجيب حيث تبلغ بالمخاطب حد اليقين، من جهة أن الرؤية هي أعلى درجات العلم بالمرئي.

فقد جاء في الفرق بين درجات النظر والإبصار والرؤية: أنها ثلاثة مستويات تبدأ بالنظر أي التأمل في الشيء ومعاينته، ثم إبصاره أي وضوحه للعين أو للعقل، ثم رؤيته وهي العلم به.

وقد استعملت مادة "بصر "في القرآن الكريم كثيراً، ودارت معانيها حول الإدراك بحاسة البصر وهي العين، والإدراك بالبصيرة وهي القلب أو العقل، ومن شواهد البصر بالجارحة قول الله -ﷻ- (إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)[1]

ومن شواهد البصر بالقلب أي العلم بالشيء (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ۝ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)[2]

فالآية هنا توضح بجلاء أن النظر غير الإبصار، فهم ينظرون وفي الوقت نفسه لا يبصرون، فالنظر هنا صورة ظاهرية، لأنهم صوروا أصنامهم في هيئة الناظر بحدقته إلى الشيء، ولكنهم لا يدركون هذا الشيء.

إذن فالنظر هو التحديق بحاسة الإبصار نحو الشيء ولكن هذا في حد ذاته لا يؤدي إلى إدراك الشي، فالنظر تحديق، والإبصار إدراك.

---

(١) مريم ٤٢.

(٢) الأعراف ١٩٧ – ١٩٨.

أما الرؤية: فتستعمل للإدراك بحاسة البصر، وللإدراك بالفكر والعقل، فمن الإدراك بالحاسة: قول الله – ﷻ – (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) (١)

ومن الإدراك بالفكر والعقل: قوله – ﷻ– (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (٢)

لكن للرؤية مزيَّة عن الإبصار: فالرؤية علمٌ ثابت لا شك فيه، ولذلك عُبِّرَ بها عن العلم اليقيني في نحو قول الله –ﷻ – (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) (٣)

والنظر أدني مراتب الإدراك بالعين، لأن الناظر قد لا يبصر ولا يرى، يقال: نظرت إلى كذا إذا مددت طَرْفك إليه رأيته أو لم تره.

الخلاصة : أن ألفاظ (البصر – الرؤية – النظر) متقاربة دلالياً، حيث تشترك جميعها في معنى تأمل الشيء لإدراكه، ولكن لكل منها درجة في الإدراك، أعلاها الرؤية التي تتميز باليقين، ثم الإبصار الذي يتميز بالوضوح، وأدناها النظر الذي قد يكون توجُّه العين إلى الشيء دون رؤيته. (٤)

---

(١) مريم ٢٦.

(٢) الأنفال ٤٨.

(٣) التكاثر ٥ – ٦ – ٧ .

(٤) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم للدكتور محمد محمد داود ط دار غريب للطباعة والنشر ص ١٣٣، معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة "نظر "ص ٥١٩ ط : دار الفكر للطباعة والنشر.

رابعاً: معنى صيغة "أَلَمْ تَرَ "في القرآن الكريم.

جاءت هذه الصيغة في واحد وثلاثين موضعاً في القرآن الكريم.

وهذه الصيغة "ألم تر "قد تُذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقرير والتـذكير، وقد تُذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه، وقد اشتهرت في ذلك حتى أُجريت مجرى المثل في هذا الباب بأن شُبِّه حال مَن لم يرَ الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه وأنه ينبغي أن يتعجب منه، والرؤية إما بمعنى الإبصار مجازاً عن النظر، أو بمعنى الإدراك القلبي متضمناً معنى الوصول والانتهاء (١)

يقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله – (واعلم أن تركيب (ألم تر إلـى كـذا) إذا جاء فعل الرؤية فيه متعدياً إلى ما ليس من شأن السـامع أن يكـون رآه كـان كلامـاً مقصوداً منه التحريض على علم ما عُدِي إليه فعل الرؤيـة، وهـذا ممـا اتفـق عليـه المفسرون ولذلك تكون همزة الاستفهام مستعملة في غير معنى الاستفهام بل في معنـى مجازي أو كنائي من معاني الاستفهام غير الحقيقي، وكان الخطاب به غالباً موجهاً إلـى غير معين، وربما كان المخاطب مفروضاً متخيلاً (٢)

يقول الألوسي – رحمه الله – ("أَلَمْ تَرَ "هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقدير والتذكير، وقد تذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبـه، وقـد اشتهرت في ذلك حتى أجريت مجرى المثل في هذا الباب بأن شُبِّه حال من لم ير الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه وأنه ينبغي أن يتعجب منه، ثم أجرى الكلام

(١) انظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم جـ ٢ ص ٥١٦ تفسير قول الله "ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف "سورة البقرة آية ٢٤٣ .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ٢ ص ٤٧٦"ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف "سورة البقرة آية ٢٤٣ .

معه كما يجرى مع من رأى قصداً إلى المبالغة في شهرته وعراقتـه فـي التعجـب – والرؤية إما بمعنى الإبصار – أى ألم تنظر إليهم، وإما بمعنى الإدراك القلبـي متضـمنا معنى الوصول والانتهاء – أى ألم ينته علمك إليهم) [1]

(١) روح المعاني للألوسي تفسير قول الله – ﷻ – "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُـمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ " سورة البقرة ٢٤٣ جـ ٢ ص ٢٤١.

المبحث الأول

التعجيب من أحوال الأمم الماضية

جاء القصص القرآني بغرض تسلية النبي – ﷺ– والتهوين عليه عما يلاقيه من أذى قومه، يقول رب العزة –ﷻ – " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "[1] فلم يكن ذكر قصص هذه الأمم السابقة بغرض معرفة التاريخ بقدر ما كان للاعتبار والاتعاظ بما كان من أحوالهم من قضية الإيمان بالله ﷻ .

وقد جاء بعض هذا القصص القرآني مفتتحاً بصيغة "ألم ترَ" جمعاً بين العظة من قصصهم والتعجيب من حالهم.

وفيما يلي أذكر بعض الأمثلة القرآنية للتعجيب من حالهم، فأقول – وبالله التوفيق–:

المطلب الأول

التعجيب من حال السابقين في مقام تسلية النبي - ﷺ -

لما يلاقيه من أذى المشركين

من ذلك قول الله – ﷻ – (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ.....) [2]

والخطاب هنا موجهٌ للنبي –ﷺ– تثبيتاً له ووعداً بالنصر، وتعريضاً للمعاندين بالإنذار بمثله، فإنَّ ما فُعِلَ بهذه الأمم الثلاث موعظة وإنذار للقوم الذين فعلوا مثل فعلهم

---

(١) هود ١٢٠ .

(٢) الفجر ٦ حتى الآية ٩.

من تكذيب رسل الله، قُصِدَ منه تقريب وقوع ذلك وتوقع حلوله، لأن التـذكير بالنظـائر واستحضار الأمثال يقرب إلى الأذهان الأمر الغريب الوقوع، لأن بُعد العهد بحدوث أمثاله ينسيه الناس، وإذا نُسي استبعد الناس وقوعه، فالتذكير يزيل الاستبعاد.

والرؤية في (أَلَمْ تَرَ) يجوز أن تكون رؤية علمية تشبيها للعلم اليقيني بالرؤية في الوضوح والانكشاف لأن أخبار هذه الأمم شائعة مضروبة بها المثل فكأنها مشاهدة.

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية والمعنى: ألم تر آثار ما فعل ربك بعاد) [١]

وجعل الرؤية بصرية – بخلاف شهرة أخبار هذه الأمم – على اعتبـار أن النبـي – ﷺ– كان يمرُّ وأصحابه على هذه الديار فيرون آثار ما لحق بأهلهـا فصـاروا كمـن شاهد ما فعله الله بهم.

فقد جاء عن سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ – ﷺ– أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ– لَمَّا مَرَّ بِـالْحِجْرِ قَالَ لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ. [٢]

وعلى نفس النهج التعجيبي نقرأ قول الله –ﷻ – (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ.....) [٣]

والرؤية في قصة أصحاب الفيل يشترك فيها الحقيقة والمجاز، فهي حقيقـة لمـن أدرك هذه الحادثة، ومجازية لمن لم يدركها.

---

(١) التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٣١٧ ط الدار التونسية للنشر.

(٢) صحيح البخاري كتاب: أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: وإلى ثمـود أخـاهم صـالحاً "الأعراف ٧٣، جـ ٢ ص ٤٧٥ حديث رقم ٣٣٨٠ ط المكتبة السلفية.

(٣) سورة الفيل ١ .

فيجوز أن تكون الرؤية بصرية بالنسبة لمن تجاوز سنه نيفاً وخمسين سنة عند نزول الآية ممن شهد حادث الفيل غلاماً أو فتى مثل أبي قحافة وأبي طالب وأبي بن خلف) [١]

والتعبير بـ "رَبُّكَ "في هذه المواطن فيه تسليةٌ عظيمةٌ للنبي ﷺ، ذلك أن إيثار التعبير بلفظ "رَبُّكَ "فيه إشارة إلى معنى التعهد والرعاية، فكأن الله – ﷻ – يقول له: ربك يتعاهدك بالنصرة على عدوك وعدوه كما تعاهد بيته بالحفظ والصيانة عن أن ينالـه أبرهة وجيشه، وكما أهلك الأمم المكذبة من قبل، والله أعلم.

والجمع بين التعبير بصيغة "ألم ترَ "ولفظ "كيف" فيه تهويل لهذه الوقائع لمن لم يشاهدها، وتعظيم لكيفية انتقام الله –ﷻ – من أعدائه الذين أرادوا بيته بالسوء.

يقول أبو السعود – رحمه الله – "وتعليق الرؤية بكيفية فعله – ﷻ – لا بنفسه بأن يقال ألم تر ما فعل ربك الخ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام فإن ذلك من الإرهاصات لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي عليه الصلاة والسلام [٢]

(١) التحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٥٤٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم ٩ ص ٢٠٠ ط دار إحياء التراث العربي.

المطلب الثاني
التعجيب من حال الأمم الماضية في مقام حضِّ المؤمنين على تجنب أفعالهم

عندما تأتي هذه الصيغة متعلقة بالأمم الماضية ذاكرةً الأخبار التي لـم يعاصـرها النبي – ﷺ – وربما لا يعلمها أهل الكتاب يكون الغرض من ذكرها تعجيبه والسـامعين من حال هؤلاء السابقين ومن ناحية أخرى تكون دلالة على صدق نبوته حين يخبر أهل الكتاب بما أخفوه في كتبهم أو لم يعلموه أصلاً، كما أن ذلك لا يخلو من الحكمة العامـة لقصِّ أخبار الأمم الماضية وهي الاعتبار والاتعاظ بما حدث لهم وتجنب الوقـوع فيمـا وقعوا فيه من تقصير أو عصيان.

من ذلك ما قصَّه الله –ﷻ – من حال بعض الأمم الماضية التي قصرت في أمـر الجهاد في سبيل الله – ﷻ – خوفاً من الموت، وفي ذلك يقول الله – ﷻ– (أَلَمْ تَرَ إِلَـى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّـهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (١)

وهذا التعجيب وإن كان الحديث فيه عن حال الأمم الماضية إلا أن الحكمة العامـة منه تعود إلى توجيه المؤمنين إلى عدم الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء من النكـوص عـن الجهاد في سبيل الله –ﷻ – خوفاً من الموت.

يقول الزمخشري – رحمه الله –: "(أَلَمْ تَرَ) تقرير لمن سمع بقصتهم مـن أهـل الكتاب وأخبار الأوّلين، وتعجيب من شأنهم.

ويجوز أن يخاطب به من لم يَرَ ولم يسمع، لأنّ هذا الكلام جرى مجرى المثل فـي معنى التعجيب"

---

(١) البقرة ٢٤٣ .

ثم ذكر – رحمه الله – أنهم أهل قرية فرُّوا من الطاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفرّ من حكم الله وقضائه، وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذراً من الموت، فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم [١]

يقول الإمام الطبري – رحمه الله –: يعني تعالى ذكره "ألم تر" ألم تعلم، يا محمد؟ وهو من رؤية القلب لا رؤية العين لأن نبينا محمداً – ﷺ– لم يدرك الذين أخبر اللهُ عنهم هذا الخبر، ورؤية القلب ما رآه وعلمه به، فمعنى ذلك: ألم تعلم يا محمد الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف؟ [٢]

والتعجيب من حال هؤلاء – الذين كما قيل فرُّوا من الطاعون أو الجهاد في سبيل الله – له من المناسبة ما له، فقد جاءت الآيةُ التالية لهذه القصة آمرةً المؤمنين بالقتال في سبيل الله فقال الله –ﷻ– (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [٣]

ومعلومٌ أن النفوس تكره القتال لأنه مظنة للموت كما أخبر الله –ﷻ – في قوله (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) [٤] فجاءت الآية الكريمة محل البحث قبل أمرهم بالقتال بياناً للمؤمنين أن الموت حقٌ على كل نفسٍ بالقتال أو بغيره، وذلك فيه حضٌ لهم على القتال في سبيل الله ﷻ.

يقول ابن كثير – رحمه الله – (وفي هذه القصة عبرةٌ ودليلٌ على أنه لن يغني حذرٌ من قدرٍ وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فإن هؤلاء فروا من الوباء طلباً لطول الحياة

(١) الكشاف للزمخشري جـ ١ ص ٢٨٦ ط دار الكتب العلمية – بيروت.
(٢) جامع البيان لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري جـ ١ ص ٧٩٣ ط دار الفكر – بيروت.
(٣) البقرة ٢٤٤.
(٤) البقرة ٢١٦.

فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعاً في آنٍ واحد) [١]

ثم جاء بعد ذلك تعجيب آخر في قول الله – ﷻ – (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) [٢]

وهذه الآية الكريمة تسير في نفس سياق الآيات السابقة عليها من الحض على الجهاد في سبيل الله – ﷻ – وعدم الالتفات إلى أمر الدنيا.

فقد أمر الله –ﷻ – في الآية السابقة عليها بالجهاد في سبيله فقال " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "[٣] ثم جاءت الآية التالية عليها آمرة بالإنفاق في سبيل الله في الجهاد "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[٤] فجاءت هذه الآية الكريمة ذاكرة مثالاً لسوء المتخاذلين عن الجهاد في سبيله بأنفسهم وأموالهم ووصفهم بالظالمين.

يقول الرازي – رحمه الله – " إنه تعالى لما فرض القتال بقوله {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ثم أمرنا بالإنفاق فيه لما له من التأثير في كمال المراد بالقتال ذكر قصة بني إسرائيل، وهي أنهم لما أُمروا بالقتال نكثوا وخالفوا فذمهم الله تعالى عليه، ونسبهم إلى الظلم والمقصود منه ألا يقدم المأمورون بالقتال من هذه الأمة على المخالفة، وأن يكونوا مستمرين في القتال مع أعداء الله تعالى"[٥]

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ٣٤٩ ط دار البيان الحديثة.

(٢) البقرة ٢٤٦ .

(٣) البقرة ٢٤٤.

(٤) البقرة ٢٤٥.

(٥) مفاتيح الغيب للرازي جـ ٣ ص ٤٨٤ .

المبحث الثاني

التعجيب من حال المؤمنين

جاء التعجيب في حق المؤمنين في سياق حضهم على الطاعة ولومهم على ما بدر منهم من تقصير، ومن ذلك قول الله – ﷻ – (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا)[1]

وهذا تعجيب من حال بعض المؤمنين الذين تكاسلوا عن القتال، والتعجيب في حقهم لومٌ وعتاب على ما بدر منهم من تقصير.

يقول أبو السعود – رحمه الله – (تعجيب لرسول الله – ﷺ– من إحجامهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حِراصاً عليه بحيث كادوا يباشرونه كما ينبئ عنه الأمر بكفِّ الأيدي فإن ذلك مشعرٌ بكونهم بصدد بسطها إلى العدو بحيث يكادون يسطون بهم)[2]

وقد كان هذا في ابتداء الإسلام وكان المؤمنون – وهم بمكة – مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النُّصُب [3]، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حينٍ، وكانوا يتحرقون ويودون لو أُمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقاً، فلهذا لم يُؤمر بالجهاد إلا

---

(١) النساء ٧٧ .

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ ٢ ص ٢٠٣ ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣) أي الزكاة المفروضة ذات الأنصبة المعلومة .

بالمدينة لما صارت لهم دارٌ ومَنَعةٌ وأنصارٌ، ومع هذا لما أُمروا بما كانوا يودونه جَـزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً (وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَـا الْقِتَـالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) أي: لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويُتْم الأبناء، وتأيّم النساء.(١)

روى الحاكم في مستدركه – بسنده – عن عكرمة عن ابن عبـاس – رضـي الله عنهما – أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي – ﷺ– فقالوا: يا نبي الله كنا في عزٍ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة !

فقال « إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم» فلما حوَّله إلى المدينة، أمره بالقتـال فكفوا، فأنزل الله تبارك وتعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ » (٢)

فكان هذا التعجيب من حالهم لما أظهروه من خوف القتال بعد أن كانوا يطلبونه.

وقد جاء هذا التعجيب من حال أولئك المـذكورين بعـد آيـات كريمـة وصـفت المجاهدين في سبيله بجميل الأوصاف ووعـدتهم بجزيـل الثـواب فقـال الله – ﷻ – " فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالأخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا..." (٣) فهذا أمر لمن كان صادقاً فـي حبـه لله –ﷻ – بأن يقاتل في سبيل ربه، فجاء هذا التعجيب بعد ذلك عتاباً لكل من تخاذل عـن طاعة الأمر بعد أن كان طالباً له.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ٢١٦.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح على شـرط البخـاري ولـم يخرجـاه، ووافقه الذهبي في التلخيص .

ينظر: مستدرك الحاكم مع التلخيص كتاب الجهاد باب: جـ ٢ ص ٧٦ حديث رقـم ٢٣٧٧ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) النساء ٧٤ – ٧٥ – ٧٦ .

المبحث الثالث

التعجيب من حال الكافرين

جاء التعجيب من أحوال الكافرين المعاصرين للنبـي – ﷺ – تسـفيهاً لأحلامهـم وفضحاً لعقولهم في جدالهم بالباطل، وما أوقعوا فيه أنفسهم من استحقاق لعذاب الله ﷻ ومن أمثلة ذلك:

المطلب الأول

التعجيب من جدال الكافرين في آيات الله

يقول الله –ﷻ – (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ * الَّـذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (١)

جاء التعجيب من سفاهة المشركين في هذا الموضع على كفرهم ومبـالغتهم فـي الضلال فلم يكتفوا بمجرد الكفر بل شرعوا في الجدال في آيات الله الدامغة الدالـة علـى وحدانيته وصدق نبيِّه ﷺ.

يقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله – " جملة {أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِين يجـادلون فـي آياتِ الله} مستأنفة للتعجيب من حال انصرافهم عن التصديق بعد تلك الدلائل البيّنة "(٢).

ومن تسفيه الله لعقول هؤلاء المشركين أنهم وصفهم بأنهم " يُجَادِلُونَ فِـي آيَـاتِ اللَّهِ " فنسب الله –ﷻ – الآيات إلى نفسه تعظيماً لها ببيان أنها ما دامت آيات الله فهـي أعظم من أن تُنكر أو يُجادل فيها، لكنهم جادلوا فدلَّ ذلك علة عتوهم في الكفر والضـلال عن الهدى.

يقول أبو السعود – رحمه الله – " تعجيبٌ من أحوالِهم الشنيعةِ وآرائِهم الركيكـةِ، أي انظُرْ إلى هؤلاءِ المكابرينَ المُجادلينَ في آياتِه تعالَى الواضحةِ الموجبةِ للإيمانِ بهـا

(١) غافر ٦٩ – ٧٠.

(٢) التحرير والتنوير جـ ٢٤ ص ٢٠٠.

الزاجرةِ عن الجدالِ فيها كيفَ يُصرفونَ عنها معَ تعاضدِ الدَّواعِي إلـى الإقبـالِ عليهـا وانتفاءِ الصوارفِ عنها بالكُلِّيةِ وقولُه تعالَى "[١]

والجدال: مأخوذ من الجَدْل وهو شِدَّة الفَتْل وجَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُه جَـدْلاً إذا شـددت فَتْله وفَتَلْتَه فَتْلاً مُحْكَماً ومنه قيل لزمام الناقة الجَدِيل، وجادَله أَي خاصمه مُجادلة وجِدالاً والاسم الجَدَل وهو شدَّة الخصومة. [٢]

يقول ابن كثير – رحمه الله – "يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق والباطل، كيف تُصرّف عقولهم عن الهدى إلى الضلال [٣]

وقد سُبقت هذه الآيات الكريمة في سورة غافر بذكر جدال الكافرين، فبـدأ الكـلام بتقبيح أمر الجدال في آيات الله وجعله صفة قاصرة عليهم فقال الله – ﷻ – { ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا }[٤] ثم سفَّه الله –ﷻ – مسلكهم هذا بأنه بغيـر دليـل أو برهان فقال "الذين يجادلون في ءايات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله "[٥] ، ثم نبه الله –ﷻ – على سبب جدالهم بقوله "إنَّ الذين يُجادلُون في آيات الله بِغَير سُـلطانٍ أتاهم إن في صُدُورهم إلاَّ كِبْرٌ"[٦] فالكبر والتعالي على الحق هو علة جدالهم ، لـذا لـم يأنفوا في الجدال أن يسلكوا فيه كل مسلك.

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ ٧ ص ٢٨٤.
(٢) انظر: لسان العرب مادة " جدل" جـ ١١ ص ١٠٢ ط دار الفكر.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٧ ص ١٠٤.
(٤) غافر ٤.
(٥) غافر ٣٥.
(٦) غافر ٥٦.

المطلب الثاني

التعجيب من كفرهم بنعم الله -ﷻ- وما أتبع ذلك مما لحقهم من ضيق المعيشة والهزيمة على أيدي المؤمنين

يقول الله -ﷻ- تعجيباً من حال مشركي مكة حين كفروا برسول الله -ﷺ- (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) (١)

وقد سُبِقت هذه الآيات الكريمة بيان الفرق بين الإيمان والكفر، فشبه الله -ﷻ- الإيمان بالشجرة الطيبة ثابتة الأصل التي تؤتي أكلها كل حينٍ بإذن ربها، ثم شبه الكفر بالشجرة التي اجتثت من فوق الأرض.

ثم جاءت هذه الآيات الكريمة مبينة لعاقبة الكفر والضلال، فذكر الله -ﷻ- فيها تعجيبه للمؤمنين من حال هؤلاء الكافرين الذين تسببوا بكفرهم في زوال نِعم الله عليهم.

يقول الطاهر بن عاشور "ونعمة الله التي بدلوها هي نعمة أن بوّأهُم حرمه، وأمنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم، وسلمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان، فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة، ثم أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه - صلى الله عليهم جميعاً - وهداهم إلى الحق، وهيّأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة، فبدّلو شكر ذلك بالكفر به، فنعمة الله الكبرى هي رسالة محمد - ﷺ- ودعوة إبراهيم وبنيّته عليهم السلام.

وقومهم: هم الذين اتبعوهم في ملازمة الكفر حتى ماتوا كفاراً، فهم أحق بأن يضافوا إليهم "(٢)

---

(١) سورة إبراهيم ٢٨ - ٢٩.

(٢) التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ٢٢٨.

وقد روى البخاري – بسنده – عن عَمْرٍو عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا (الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا) قَالَ: هُمْ وَاللَّهِ كُفَّارُ قُرَيْشٍ.

قَالَ عَمْرٌو: هُمْ قُرَيْشٌ، وَمُحَمَّدٌ – ﷺ– نِعْمَةُ اللَّهِ.

(وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) قَالَ: النَّارَ يَوْمَ بَدْرٍ [١]

وصح عن عبد الله بن مسعود – ﷺ– أن قريشاً لما استعصوا على النبي – ﷺ – دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله – تعالى – (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۞ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) [٢]

قال: فأُتِيَ رسولُ الله – ﷺ – فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت؟

قال: لمضر؟ إنك لجريء فاستسقى فسُقُوا فنزلت (إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) [٣] فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية فأنزل الله – ﷻ – (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)[٤]

قال: (يعني يوم بدر) [٥]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل جـ ٣ ص ٨٦ حديث ٣٩٧٧ ط :المكتبة السلفية – القاهرة.

(٢) سورة الدخان آية ١٠، ١١.

(٣) سورة الدخان آية ١٥.

(٤) سورة الدخان آية ١٦.

(٥) رواه البخاري في كتاب: التفسير، باب (يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) جـ ٣ ص ٢٨٩ حديث رقم ٤٨٢١ ط المكتبة السلفية.

المبحث الرابع

التعجيب من حال أهل الكتاب

جاء التعجيب من أحوال أهل الكتاب وخاصة اليهود الذين بحكم مجاورتهم للمسلمين بالمدينة، وقد وقع التعجيب من أفعالهم التي تنافي كونهم أهل كتاب ، فقد كان الأجدر بهم وهم أهل علمٍ وأتباع أنبياء أن يكونوا أول من يؤمن برسول الله – ﷺ– وإذا لم يؤمنوا به فعلى الأقل لا يقعوا فيما وقعوا فيه من أفعال مشينة تجعلهم في مصاف عُبَّاد الأصنام ، ومما جاء في القرآن تعجيباً من أحوالهم:

المطلب الأول

التعجيب من حال اليهود في إعراضهم عن حكم التوراة وما فيها

يقول الله – ﷻ – (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ) (١)

جاءت هذه الآية الكريمة تعجيباً للنبي – ﷺ – من حال أولئك اليهود الذين تكبروا على الأخذ بحكم الله – ﷻ – في كتابهم وأعرضوا عنه.

وقد صُدِّرت الآية الكريمة بوصفهم بـ "الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ" زيادة في تقبيح شأنهم والتعجيب من حالهم، إذ الذي أوتي نصيباً من الكتاب كان ينبغي أن يكون أول المذعنين لحكم الله وكتابه، فكيف بمن لم يُؤتَ كتاباً!

ثم كيف بهم أن يعرضوا عمَّا في كتبهم التي يقدسونها كالتوراة! .

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة أقوال:

منها: ما جاء عن ابن عباس قال: دخل رسول الله – ﷺ– بيت المدراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نُعَيم بن عمرو والحرث ابن زيد: على أي

(١) آل عمران ٢٣.

دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم، قالا: إن إبراهيم كان يهوديا فقال رسول الله - ﷺ- فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية [١]

فالله -ﷻ - ينكر على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللَّذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد - ﷺ- تولَّوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد) [٢]

ومنها: أنها نزلت في قصة اللذين زنيا من خيبر، وسؤال اليهود للنبي - ﷺ- عن حد الزانيين [٣]

وقد جاء في هذا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ- بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَنَيَا، فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَى مِنْكُمْ؟ قَالُوا نُحَمِّمُهُمَا وَنَضْرِبُهُمَا، فَقَالَ لا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ؟ فَقَالُوا: لا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سلام: كَذَبْتُمْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَوَضَعَ مِدْرَاسُهَا الَّذِي يُدَرِّسُهَا مِنْهُمْ كَفَّهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا ولا يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ، فَنَزَعَ يَدَهُ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ فَقَالَ مَا هَذِهِ؟ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا: هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ الْجَنَائِزِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَحْنِي عَلَيْهَا يَقِيهَا الْحِجَارَةَ. [٤]

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٨٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير مجلد ١ جـ ٢ ص ١٦.

(٣) كذا جاء عن الكلبي. ينظر: أسباب النزول للواحدي ص ٨٦.

(٤) رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب "قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين "ص ٢١٠ حديث رقم ٤٥٥٦ ط المطبعة السلفية.

والقول بالعموم أولى لما فيه من شدة تحقير أمرهم في تمردهم على الإقرار بنبوة النبي – ﷺ– الموصوف عندهم في كتبهم، وتمردهم على الأخذ بأحكام كتبهم في الحدود وفي غيرها.

وإلى القول بالعموم مال الإمام الطبري رحمه الله [١]

وقد ذمهم الله –ﷻ – في آية أخرى بهذا الأسلوب التعجيبي فقال (أَلَمْ تَـرَ إِلَـى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ) [٢]

وقد جاء التعجيب من ضلالهم هنا بأبلغ أسلوب إذ عبَّر الله – ﷻ – عن إيثـارهم للضلالة على الهداية بلفظ الاشتراء الذي يبينهم وكأنهم كلفوا أنفسهم مؤونـة شـرائه فباعوا ما معهم من حق مقابل أن يأخذوا هذا الباطل.

يقول الطبري (وإنما عنى الله بوصفهم باشترائهم الضلالة: مقامهم على التكـذيب بمحمد – ﷺ – وتركهم الإيمان به، وهم عالمون أنّ السبيل الحقَّ الإيمانُ به، وتصـديقه بما قد وجدوا من صفته في كتبهم التي عندهم) [٣]

(١) جامع البيان للطبري مجلد ٣ جـ ٣ ص ٢٩٦.

(٢) النساء ٤٤ .

(٣) جامع البيان للطبري مجلد ٤ جـ ٥ ص ١٦٣.

المطلب الثاني

التعجيب من موالاتهم للكافرين ضد رسول الله ـ ﷺ ـ

جاء في سورة النساء تعجيب مركب من أحوال اليهود التي تدل على مدى فجرهم في الخصومة مع النبي – ﷺ– حتى إن العداوة حملتهم على مجاملة الكافرين وإنكار ما هو ثابت عندهم في التوراة من البشارة برسول الله – ﷺ– فوصفوا كفار مكة بأنهم أهدى سبيلاً من رسول الله ﷺ.

وقد سجل القرآن الكريم عليهم هذه السفاهة في قول الله –ﷻ – "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً"(١)

يقول أبو السعود – رحمه الله – "تعجيبٌ من حالٍ أخرى لهم، ووصفهم بما ذكر من إيتاء النصيب لما مرَّ من منافاته لما صدر عنهم من القبائح، وقوله – ﷻ– (يؤمنون بالجبت والطاغوت) استئناف مبين لمادة التعجب مبني على سؤال ينساق إليه الكلام كأنه قيل: ماذا يفعلون حين ينظر إليهم؟ (٢) فقيل: يؤمنون الخ)" (٣)

ومن تقبيح الله –ﷻ – لحالهم فيما فعلوه أنه وصفهم بأنهم " أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ " فمَنْ هذا حاله من العلم بوحي الله – ﷺ – كان حريّاً به أن يكون أول المؤمنين برسول الله – ﷺ– لكن الحسد للعرب حملهم على أن يكونوا أول من يكفر به.

---

(١) النساء ٥١.

(٢) إشارة إلى قول الله – ﷻ – (انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا) النساء ٥٠.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ ٢ ص ١٨٨ ط دار إحياء التراث العربي.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عن عكرمة: أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش، فاستجاشهم[١] على النبي- ﷺ- وأمرهم أن يغزوه، وقال: إنَّا معكم نقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب، وهو صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكرًا منكم! فإن أردت أن نخرج معك، فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما، ففعل، ثم قالوا: نحن أهدى أم محمد؟ فنحن ننحر الكوماء [٢] ونسقي اللبن على الماء، ونصل الرحم، ونقري الضيف، ونطوف بهذا البيت، ومحمدٌ قطع رحمه، وخرج من بلده؟ قال: بل أنتم خير وأهدى! فنزلت فيه "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ") [٣]

وقد سُبقت هذه الآية الكريمة بفضحهم فيما كانوا يدعونه من تفضيلهم على غيرهم ومدحهم لأنفسهم بما ليس لهم، فقال الله -ﷻ - "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ولا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۞ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا" [٤]

فهذه الآية الكريمة تعجيبٌ للنبي - ﷺ - من حال اليهود والنصارى الذين كانوا يمدحون أنفسهم بما ليس فيهم، نحو قولهم "نحن أبناءُ اللهِ وأحبّاؤه...."وقولهم "وقالوا

(١) أي طلب منهم جمع الجيوش عليه. لسان العرب مادة "جيش "جـ ٦ ص ٢٧٨ ط دار الفكر – بيروت.

(٢) الكوماء: الناقة عظيمة السنام طويلته. لسان العرب مادة "كوم "جـ ١٢ ص ٥٢٩.

(٣) جامع البيان للطبري مجلد ٤ جـ ٥ ص ١٨٦ – أسباب النزول للواحدي ص ١٢٩ ط دار الحديث .

(٤) النساء ٤٩ – ٥٠.

لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى...."[١] كما جاء عن الحسن وقتادة وابن زيد رحمهم الله [٢] .

كما سُبقت هذه الآية الكريمة بتهديد الله – ﷻ – لهم بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً) [٣]

وبهذا الترتيب يأتي التعجيب من حالهم فيوقع في النفس أشد أنواع الدهشة من بلوغهم هذه الحالة من التخبط بين مدح أنفسهم مع كفرهم وإنكارهم لما في كتبهم، وبين وصفهم للكافرين بأنهم أهدى سبيلاً من رسول الله – ﷺ– الذين يعلمون علم اليقين أنه على الحق المبين، لكنه الحسد الذي يعمي ويصم.

(١) البقرة ١١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢ ص ٢٠٠ ط مكتبة الصفا.

(٣) النساء ٤٧.

المبحث الخامس

التعجيب من حال المنافقين

جاء التعجيب من حال المنافقين الذين سلكوا مسلك الخسة وسوء الأدب مع الله -ﷻ - ومع رسوله - ﷺ- وحتى مع من حالفوهم من أعداء الله ورسوله، وقد سجل عليهم القرآن هذا المسلك في كثير من الآيات، ومما جاء بأسلوب التعجيب:

المطلب الأول

تناجيهم بما نُهُوا عنه وظنهم أن الله لا يعلمه

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (١)

بعد أن تحدثتِ الآيات الكريمة في صدر سورة المجادلة عن الظهار وما يترتب عليه من أحكام، ثم خوَّفتِ المؤمنين من الوقوع في أفعال الكافرين بهذا الأمر الذي يشبه المحادة والمعاندة التي وقع فيها الكافرون صراحةً ثم ذكرتِ الآيات عاقبة هؤلاء الكافرين والمنافقين شرعت السورة في الحديث عن بعض أفعال المنافقين التي جعلتهم مستحقين للكبت الذي توعدهم الله -ﷻ- به في الآيات السابقة، فذكرت تناجيهم بما يؤكد كمال عداوتهم لله - ﷻ - فقال الله - ﷻ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ....)

أي ألم تنظر بعين قلبك فتعلم أن الله - جلّ وعزّ - يعلم ما في السّموات وما في الأرض، لا يخفى عليه شيء من صغيرة ولا كبيرة فكيف يخفى عليه أعمال هؤلاء. (٢)

---

(١) المجادلة ٧ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ص ١١١٨ ط دار المعرفة – بيروت.

وهذه الآية الكريمة كالتمهيد لما سيأتي بعدها في الآية التالية التي سجلت على اليهود والمنافقين موقفاً مكملاً لوصفهم بالحماقة وسوء الأدب مع الله -ﷻ- فيقول الله -ﷻ- مُعجِّباً رسوله -ﷺ- والمؤمنين جميعاً من حال هؤلاء السفهاء (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[1]

وهنا يأتي التعجيب مركباً فكأنه تعجيب بعده تعجيب، فهؤلاء نُهوا عن النجوى وكان ينبغي أن يكون ذلك تحذيراً لهم بعلم الله -ﷻ- لتناجيهم فلا يعودوا إليه مرة أخرى لكنهم عادوا، وكل ذلك إن دلَّ فإنما يدل على مدى سفاهة المنافقين والموصوفين في هذه الآية الكريمة.

قال ابن عباس: نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتلٌ أو موتٌ أو مصيبةٌ أو هزيمةٌ، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله -ﷺ- فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية. [2] أ.هـ

وفي هذه الآية الكريمة يذكر الله -ﷻ- من سوء أدبهم أنهم كانوا إذا دخلوا على رسول الله -ﷺ- حيَّوه ولووا ألسنتهم كعادتهم في المكر والخداع.

---

(١) المجادلة ٨.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٣٤٩ .

روى الإمام البخاري– رحمه الله – في صحيحه – بسنده – عن عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– فَقَالُوا: " السَّامُ [1] عَلَيْكَ " فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: عَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– مَهْلًا يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– فَقَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ [2] أ.هـ

وقد جاء التصريح بأن ذلك هو سبب نزول الآية، فعن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله – ﷺ– سام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم " لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ " فنزلت هذه الآية " وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ " إلى آخر الآية " [3]

(١) السام بمعنى الموت. لسان العرب مادة " سوم " جـ ١٢ ص ٣١٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: كيف الرَّدُّ على أهل الذمة بالسلام. جـ ٤ ص ١٤٢ حديث رقم ٦٢٥٦ ط المكتبة السلفية.

(٣) رواه أحمد في مسنده والبزار في مسنده وقال الحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي: إسناده جيد .

ينظر: مسند أحمد بن حنبل جـ ٣ ص ٥٥٧ حديث رقم ٦٧٤٦ ط دار الكتب العلمية بيروت – مسند البزار جـ ٦ ص ٣٨٩ حديث رقم ٢٤١٠ ط مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي جـ ٧ ص ١٨٧ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

المطلب الثاني

التعجيب من توليهم غير المؤمنين

يقول الله – ﷻ – "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (١)

وهذا تعجيب آخر يدل على سفاهة المنافقين، فبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن سوء أدب المنافقين واليهود مع الله –ﷻ – في إسرارهم النجوى وظنهم أن الله – ﷻ– لا يعلم سرهم ونجواهم، وسوء أدبهم مع النبي – ﷺ– عندما كانوا يحيونه ويلوون ألسنتهم بالقول، ونبهتِ المؤمنين إلى وجوب البعد عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم، شرعت السورة في فضح هؤلاء المنافقين واليهود فذكرت مثالاً آخر على سفاهة عقولهم وبُغضهم للإسلام والمسلمين فقال الله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...) (٢)

يقول الألوسي – رحمه الله –: "أَلَمْ تَرَ "تعجيب من حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهودَ أولياءَ ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين. (٣)

قال السدي ومقاتل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبي – ﷺ– ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينا رسول الله – ﷺ– في حجرة من حُجَره إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان فدخل عبد الله بن نبتل وكان زرق فقال له رسول الله – ﷺ–: يا غلام تشتمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل ذلك فقال له النبي – ﷺ–: فعلت، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

---

(١) المجادلة ١٤.

(٢) سورة المجادلة من الآية ١٤ حتى ٢١.

(٣) روح المعاني جـ ٢٨ ص ٤٥.

وعن سعيد بن جبير أن ابن عباس حدَّثه أن رسول الله – ﷺ– كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد الظل يقلص عنهم فقال لهم: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان وإذا أتاكم فلا تكلموه فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله – ﷺ– وكلمه فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان نفر دعا بأسمائهم فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا بالله واعتذروا إليه فأنزل الله تعالى "يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ "(١) (٢) أ.هـ.

ومما اشتملت عليه الآية من أسلوب التعجيب وصفهم بقول – ﷻ – (مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ) أي أن اليهود، لا هم من المسلمين حتى ينحازوا إليهم نفاقاً، ولا هم من المنافقين أنفسهم حتى يخافوا عليهم وينقلوا إليهم أسرار المسلمين، فهذا من جملة سفاهتهم.

ومن تمام وصفهم بالسفاهة تعجيباً من حالهم قول الله – ﷻ – (وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أي يعلمون أنه كذب ومع ذلك يقولونه مع علمهم بأن الله – ﷻ – فاضحهم في كل الأحوال كما سبق وفضحهم قبل ذلك.

---

(١) المجادلة ١٨ .

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي ٣٥١، وحديث ابن عباس رواه الحاكم في مستدركه بألفاظ قريبة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس جـ ٢ ص ٥٢٤ حديث ٣٧٩٥ وقال: هذا حديث على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه أحمد وقال ابن كثير عن إسناده "إسناده جيد ولم يخرجوه "انظر: تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٣٤، وقال الهيثمي "رواه أحمد والبزار ورجال الجميع رجال الصحيح "انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي جـ ٧ ص ١٨٨، المحرَّر في أسباب النزول للدكتور / خالد بن سليمان المزيني جـ ٢ ص ٩٧٢ ط دار ابن الجوزي –المملكة العربية السعودية – الطبعة الثالثة ١٤٣٣ هـ .

المطلب الثالث

التعجيب من وعدهم بالنصرة لليهود على المسلمين

يقول الله – ﷻ– (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (١)

في هذه الآية الكريمة يعجِّب الله – ﷻ – رسوله – ﷺ – من أفعال المنافقين التي سبق ذكرها في السورة السابقة وهي سورة المجادلة.

وعن وجه الترابط بين السورتين في هذا السياق الواحد يقول الإمام البقاعي – رحمه الله – لما ختمت المجادلة بأنه مُعزُّ أهل طاعته، ومُذلُّ أهل معصيته ومحادته، علله بتنزهه عن النقائص تأييداً للوعد بنصرهم فقال "سَبَّحَ "(٢) أي أوقع التنزيه الأعظم عن كل شائبة نقص "لِلَّهِ "(٣) الذي أحاط بجميع صفات الكمال. (٤) انتهى

ويقول أبو جعفر الغرناطي – رحمه الله – في وجه تناسب سورة الحشر مع المجادلة: لا خفاء باتصال آيها بما تأخر من آي سورة المجادلة، ألا ترى أن قوله تعالى "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ "(٥) إنما يراد به يهود، فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جرأتهم، ثم قال في آخر السورة "لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ "(٦)

---

(١) الحشر ١١ .

(٢) الحشر ١ .

(٣) الحشر ١ .

(٤) نظم الدرر لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي جـ ١٩ ص ٤٠٣.

(٥) المجادلة ١٤.

(٦) المجادلة ٢٢ .

فحصل من هذا كله تنفيرُ المؤمنين منهم وإعلامهم بأن بغضهم من الإيمان وودهم من النفاق لقبح ما انطووا عليه وشنيع ما ارتكبوه.

فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر اتبعت بالإعلام في أول سورة الحشر بما عجَّل لهم من هوانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم، وتمكين المسلمين منهم جرى على ما تقدم الإيماء إليه من سوء مرتكَبهم"[1] انتهى.

يقول ابن كثير – رحمه الله – (يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبيّ وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يَعدُونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ) قال الله تعالى (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) أي: لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا لهم قولاً من نيتهم ألا يفُوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه ولهذا قال (وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ) أي: لا يقاتلون معهم(وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ) أي: قاتلوا معهم (لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ) وهذه بشارة مستقلة بنفسها)[2]

(١) البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي ص ١٨٤ ط دار ابن الجوزي – السعودية.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٨ ص ٤٨.

الخاتمة

الحمد لله الذي بحمده تتمُّ الصالحات وتُقْبَـلُ الطاعـات وتُـغْـفَـرُ السـيئات وأصلي وأسلم على خير الخلق ونبي الحق سيدنا محمدٍ – ﷺ– وعلى آلـه وأصـحابه ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

وبـعـد :

فإنني أرجو من الله – ﷻ– أن أكون قد وُفِقتُ في هذا العرض الموجز لأسـلوب التعجيب القرآني وما ذكرته له من أمثلة متنوعة.

وإنني أرجو من كل مُطَّلِعٍ على هذا البحث أن يلتمس لي العذرَ إن وجد في عملي هذا تقصيراً أو خطأً فإن الكمال لله – ﷻ– وحده ٠

فإن أكن قد وُفِقتُ في عملي هذا فبتوفيقٍ من الله – ﷻ– (وَمَا تَوْفِيقِي إلا بِاللَّـهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (١)

وإن أكن قد أخطأتُ فإنني أستغفر الله العظيم – الذي لا يتعاظمه ذنب – مـن كـل خطأ أخطأته أو زللٍ زللته.

نتائج البحث :

١. أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب وبأساليبهم في الكلام لكن مع بلوغه الدرجة العليا في البلاغة والفصاحة والإعجاز
٢. أن أسلوب الاستفهام والنفي في القرآن الكريم كان أسلوباً تعجيبياً ولـيس تعجبيـاً، ذلك أن التعجب يستلزم عدم علم المتعجب، بخلاف التعجيب الذي يترتب عليه علـم المعجِّب بالأمر.

(١) سورة هود آية ٨٨.

توصيات البحث:

وجوب اهتمام الدارسين والمشتغلين بعلوم القرآن الكريم بإظهار وجـوه بلاغـة القرآن الكريم ومن ضمنها بيان حقيقة الاستفهام المسـند لله -ﷻ- وأنـه اسـتفهام مجازي وليس على الحقيقة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا ونبينا محمدٍ الهادي الأمين
وعلى آله وصحبه أجمعين

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم جلّ من أنزله.

- الإتقان في علوم القرآن لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ط دار الكتب العلمية – بيروت.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمد بن مصطفى أبي السعود العمادي ٩٨٢هـ ط مكتبة الرياض الحديثة تحقيق /عبد القادر أحمد عطا.
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي ط دار الحديث – القاهرة ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م تحقيق أيمن صالح شعبان
- إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ٣٣٨ ه ط دار المعرفة – بيروت ط أولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨ م
- البحر الزخار المعروف بمسند البزار للحافظ أبي بكر أحمد بن عمر العتكي البزار ٢٩٢ ه تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله ، ط مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة طبعة أولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م
- البرهان في تناسب سور القرآن للحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي ٧٠٨هـ ط دار ابن الجوزي طبعة أولى ١٤٢٨ هـ
- البرهان في علوم القرآن للإمام لمحمد بن عبد الله الزركشي تحقيق / محمد أبوالفضل إبراهيم ط مكتبة دار التراث.
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن حسن حَبَنَّكة الميداني ط دار القلم – دمشق طبعة أولى ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للطبع والنشر ١٩٨٤م .
- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ط مكتبة الصفا طبعة أولى ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جعفر بن جرير الطبري ضبط وتوثيق وتخريج / صدقي جميل العطار ط دار الفكر – بيـروت ط ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م ٠
- الجامع المسند الصحيح من حديث رسول الله – ﷺ – وسننه وأيامـه للحـافظ محمد بن إسماعيل البخاري حققه / محب الدين الخطيب رقَّـمَ كتبـه وأبوابـه وأحاديثه / محمد فؤاد عبد الباقي ط المكتبة السلفية طبعة أولى ١٤٠٠ هـ
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمـد القرطبـي ط دار الحـديث ط ثانية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦ م .
- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه تصنيف / محمود صافي ط دار الرشيد – دمشق، بيروت ط رابعة ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م .
- روح المعاني في تفسـير القـرآن العظـيم والسـبع المثـاني لأبـي الفضـل شهاب الدين محمود الألوسي ط دار الفكر – بيروت ٠ قرأه وصححه / محمـد حسين العرب ط ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م ٠
- الصحاح للجوهري مادة ط دار العلم للملايين طبعة أولى ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م تحقيق أحمد عبد الغفور عطار
- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ هـ ط دار الكتب العلميـة بيروت ترتيب وتحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي طبعـة أولـى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .
- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ط دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع حققـه وعلق عليه محمد إبراهيم سليم .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمـام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ط دار الكتب العلميـة – بيروت ط أولى ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م .

- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي ط دار الفكـر – بيروت ط ثالثة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ علي بن أبي بكـر الهيثمـي ط دار الكتـب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م تحقيق / محمد عبـد القـادر عطا.
- المحرَّر في أسباب النـزول للـدكتور / خالـد بـن سـليمان المزينـي ط دار ابن الجوزي –المملكة العربية السعودية – الطبعة الثالثة ١٤٣٣ هـ
- المستدرك للحاكم محمد بن عبد الله، وبهامشه التلخيص للحافظ الـذهبي محمـد ابن أحمد ط دار الكتب العلمية – بيروت ط ثانية ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٤١ ه حققه ووضع حواشيه ورقم أحاديثه محمـد عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية بيروت طبعة أولى ٢٠٠٨ م/ ١٤٢٩هـ .
- معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزجاج شـرح وتحقيـق د / عبد الجليل عبده شلبي ط عالم الكتـب – بيـروت ط أولـى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م .
- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم للدكتور محمد محمد داود ط دار غريب للطباعة والنشر.
- معجم مفردات ألفاظ القرآن للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني تحقيق / نـديم مرعشلي ط دار الفكر – بيروت ٠
- نظم الدرر لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقـاعي ط دار الكتـاب الإسـلامي – القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٦
تمهيد	٩
المبحث الأول: التعجيب من حال الأمم الماضية ، وفيه مطلبان :	١٦
المطلب الأول : التعجيب من حال السابقين في مقام تسلية النبي – ﷺ – لما يلاقيه من أذى المشركين.	١٦
المطلب الثاني : التعجيب من حال الأمم الماضية في مقام حضِّ المؤمنين على تجنب أفعالهم	١٩
المبحث الثاني: التعجيب من حال المؤمنين	٢٢
المبحث الثالث: التعجيب من حال الكافرين. وفيه مطلبان :	٢٤
المطلب الأول : التعجيب من جدال الكافرين في آيات الله .	٢٤
المطلب الثاني : التعجيب من كفرهم بنعم الله –ﷺ – وما أتبع ذلك مما لحقهم من ضيق المعيشة والهزيمة على أيدي المؤمنين.	٢٦
المبحث الرابع: التعجيب من حال أهل الكتاب ، وفيه مطلبان :	٢٨
المطلب الأول : التعجيب من حال اليهود في إعراضهم عن حكم التوراة وما فيها.	٢٨
المطلب الثاني :التعجيب من موالاتهم للكافرين ضد رسول الله ــﷺ. ــ	٣١
المبحث الخامس: التعجيب من حال المنافقين. وفيه مطلبان :	٣٤
المطلب الأول: تناجيهم بما نُهُوا عنه وظنهم أن الله لا يعلمه:	٣٤

الموضوع	الصفحة
المطلب الثاني : التعجيب من توليهم غير المؤمنين.	٣٧
المطلب الثالث: التعجيب من وعدهم بالنصرة لليهود على المسلمين	٣٩
الخاتمة.	٤١
المصادر والمراجع .	٤٣
فهرس الموضوعات.	٤٦